مجلة العلوم الإسلامية والحضارة رقم ISSN 2477 – 9903
المجلد 07 ـ العدد 02 ـ السنة 2022 ص 13 - 32

مقاربة بديع الزمان النورسي لفعل التحضر

Badīᶜ al-Zamān al-Nawrasī's approach to the act of urbanization

عمر بن بوذينة*

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، قطر amarbenboudinaa@qu.edu.qa

تاريخ الإرسال: 2022/02/01 تاريخ القبول: 2022/02/15 تاريخ: النشر: 2022/06/05

الملخص:

سعت الدراسة إلى التعريف برؤية بديع الزمان النورسي للتحضر بأبعاده وخصائصه الإنسانية والاجتماعية وارتباط فلسفته الحضارية بالفكرة الدينية وإصلاح الذات والاعتبار لمبادئ الإسلام في تنظيم شؤون الحياة وتحقيق العدالة والحرية. وقد تتبعت الدراسة المنهج التحليلي من خلال بسط مفاهيم التحضر من مؤلفات النورسي وتفكيك عناصره الأساسية للتعمق فيها ومقاربة بعضها ببعض تمهيدا لرصد الرؤية الشاملة للتحضر عنده.

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها أن حالة التخلف العامة لا ترجع في عمومها إلى العامل الاستعماري وحده، بل إلى تشوه الذات المسلمة من خلال انسحاب العناصر الروحية فيها، وأن البدائل لهذه الحالة تكمن في استعادة دور التوحيد الإسلامي وتحقيق مبادئ الحرية والعدالة.

الكلمات المفتاحية: بديع الزمان النورسي، فكر، التحضر، التخلف.

* **المؤلف المرسل**

Abstract:

This study examines the concept of urban life and its social characteristics in the thought of Badīc al-Zamān al-Nawrasī with a special focus on the connection of his philosophy of urbanization to the question of religion and self-restoration and the role of the Islamic principles in organizing life matters and attainting justice and freedom. Through the analytical approach, this study seeks to present Badīc al-Zamān's concept of urban life in simplified terms and deconstruct its key components. It delves deeply into them and reads then against one another to establish a comprehensive view of his perspective on urban life. The main conclusion of this study is that Muslims' current state of underdevelopment is not a result of colonization alone. Rather, it is also the result of a disfigurement of in the Muslim self and the fact that it has been emptied of the spiritual element. Therefore, the alternative lies in reinstating the role of Islamic monotheism and fulfilling the principles of freedom and justice

Keyword: Badīc al-Zamān al-Nawrasī, Thought, Urbanization, Underdevelopment.

مقدمة:

شكّل فعل التحضر نقاشا لدى عدد من المفكرين ورجال الإصلاح في العالم الإسلامي؛ باعتباره فعلا ضروريا للوجود الإنساني من جهة، وباعتبار التوجيه الديني الإسلامي الممتد في النصوص المرجعية، فالتحضر هو وصية قرآنية دلت عليها الآيات والسنن وسار بها المسلمون في التاريخ فتعددت المنجزات الحضارية واستقامت الحياة بهداية الدين واستواء العقل واعتدال السلوك.

ولم يطل العصر الحديث برأسه حتى كان عموم العالم الإسلامي يرزح في موجة من التخلف تطبع مجالات الحياة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وروحيا، وهو الأمر الذي أفزع العقول المفكرة التي حاولت الاستنهاض بالمقومات التاريخية التي شكلت الهوية الإسلامية وقيمها الأصيلة، في محاولة لاستعادة الدور الحضاري للذات المسلمة المتصلة بواقعها.

وكان من تلك العقول المسلمة المفكر المصلح بديع الزمان النورسي الذي انتبه إلى حالة الإخفاق الحضاري التي آل إليها العالم الإسلامي، فشكّل فكره مادة لصناعة مشروع إصلاحي يتوجه نحو الذات والواقع بامتزاج فريد يمكن تتبعه تحت عنوان مقاربة النورسي لفعل التحضر.

إن السؤال الذي تتبعه هذه الدراسة هو: كيف نظر النورسي إلى فعل التحضر ببعديه المجتمعي والإنساني؟

سنحاول تتبع الإجابة عن هذا السؤال بعناوين رئيسية تتعلق بمفهوم التحضر عند النورسي والخصائص الاجتماعية لفكر النورسي الحضاري ومقومات إنسان الحضارة في فكر النورسي والمجتمع النموذجي المتحضر عند النورسي.

1. مفهوم التحضر عند النورسي:

يحيل مفهوم التحضر عند بديع الزمان النورسي إلى عناصر الارتقاء المادي في المجالات الاقتصادية الصناعية خصوصا، أما الخصوصية الفكرية والدينية والثقافية فيوظفها النورسي للمدنية والتمدن وهي العناصر التي تفصل بين أوروبا والشرق، أي بين المسلمين والمسيحيين.

ويقف النورسي عند مفهوم التحضر حين يعطي للمدنية بعدا إنسانيا من خلال اجتماع الرقي الاخلاقي والحضارة. يقول النورسي في معرض الرد عن خصومه: " أي مصلحة ياترى يجنيها أهل الإلحاد في الخروج عن الدين؟ فإن كانوا يرمون أمن البلاد، واستتباب النظام فيه فإن إدارة عشرة من الملحدين السفلة الذين لا يؤمنون بالله ودفع شرورهم، أصعب بكثير من إدارة ألف من المؤمنين، وإن كانوا يرغبون في الرقي الحضاري فإن أمثال هؤلاء الملحدين مثلما يضرون بإدارة الدولة، فهم يعيقون التقدم، إذ يخلون بالأمن والنظام، وهما أساسا الرقي والحضارة "[1].

ومن هنا فالتقدم الحضاري عند النورسي هو مجموع الأحوال المادية والمظاهر الاقتصادية والتجارية والعلاقات الإنسانية المرتبطة بها، والتي تتآلف كلها لتشكل ميكانيزمات الرقي الحضاري أو التمدن الإنساني كما يراها، فهذا الأخير هو في نظره دليل التمكّن، وهذه العوامل مشتركة ومتكاتفة تنتظم ضمن سيرورة خاصة يسميها هو مضمار التقدم[2].

2. الخصائص الاجتماعية لفكر النورسي الحضاري:

سعى النورسي إلى بعث الحياة في تعاليم الإسلام الأساسية من الوجهة العقائدية والفكرية والفلسفية، مؤكدا أن القوة الحيوية للإسلام المعاصر قد أفسدت بتأثير الفكر الفلسفي المادي، الذي غير بتأثيره هذا من فلسفة الإسلام في النظر إلى الحياة وحوّلها إلى مصالحة سلبية واستسلام للقدر.

يقول النورسي: " إن الضروريات الدينية التي لا مجال فيها للاجتهاد لقطعيتها وثبوتها والتي هي في حكم القوت والغذاء قد أهملت في العصر الحاضر، وأخذت بالتصدع، فالواجب يحتم صرف الجهود وبذل الهمم جميعا لإحياء هذه الضرويات وإقامتها، حيث أن الجوانب النظرية للإسلام قد استثمرت بأفكار السلف الصالحين، وتوسعت باجتهاداتهم الخالصة حتى لم تعد تضيق بالعصور جميعا، لذا فإن ترك الاجتهادات الزكية، والانصراف عنها إلى اجتهادات جديدة اتباعا للهوى إنما هو خيانة مبتدعة "[3].

كان وضع المسلمين في أغلب مجتمعات الشرق يتطلب من الشرقيين العمل المتواصل والإجتهاد باستمرار للحفاظ على هويتهم وضمان آصرة الوحدة بينهم، وأيضا السعي لاسترداد حقوقهم، فجغرافية الزمان والمكان في غير صالحهم وميزان القوى العالمي ينبئ بأن مستقبل الحضارة لا حظَّ للشرقيين فيه، فهم يفتقدون لشروط ومميزات التعاطي مع هذا المستوى الراقي من العلوم والمعارف والصناعات المتقدمة.

لهذا سعى النورسي بمجهوده الشخصي لدعم تيار المصلحين في مشروعهم وخطتهم الرامية إلى تخليص الفكر والعقائد والمنهجية والأخلاق الإسلامية من الشوائب التي نجمت عن تراكم العوامل السلبية فيها لقرون عدة، النورسي عندما يتحدث عن الشوائب فهو في الغالب يقصد شوائب الفلسفة الأوروبية، والفلسفة الأوروبية ينظر إليها من زاوية ضررها وتأثيرها السيئ في فكر ومناهج الشرقيين، لذلك فهو يعمل حثيثا لإقامة السد المانع من خلال تخطيطه التروي وتجاربه التربوية المعروفة.

ولكن هذه المحاولة أدت أيضا بالضرورة إلى رفض ما انجرّ من آثار فكرية ومعرفية مرتبطة بهذه الفلسفة الأوروبية في الشرق، رفض مباشر وصريح من قبل النورسي ومن قبل كثيرين من مصلحي فترة النورسي البارزين،وبقي الرفض مقدسا ومهيمنا حتى إلى ما بعد وفاة النورسي، أو بالضبط إلى غاية سنة 1967م، وهي السنة التي منيت فيها الجيوش العربية بهزيمة كبيرة أمام الجيش الإسرائيلي، حيث سنشهد على صعيد بنية الفكر الحركي الإصلاحي تغيرا جوهريا، وتخلي معلن عن بعض المواقف الفكرية التي استمرت قائمة في الخطابات الإصلاحية منذ إسقاط الخلافة، ينعكس هذا الحكم على من هم في العالم العربي أو الذين هم من غير العالم العربي .

في نهاية الحرب العالمية الأولى بدأت قضية التحرر والاستقلالوالانفصال عن الاستعمار الأوروبي تشغل فكر الحركات الإصلاحية، وبالتالي تم طرح القضية القومية والفكر القومي بقوة وحدة في تلك الفترة بالذات، وصارت موضوع الساعة، وقد خاض النورسي فيها كثيرا أثناء تلك الفترة (فترة سعيد القديم)، كل ذلك تم بعد خيبة أمل عارمة نتيجة الفشل واليأس من الوعود المتكررة بحرية تقرير المصير، بعد المشاركات القوية للشباب الشرقي من مختلف البلدان في تلك الحرب مجندا ومرتزقا في صفوف الجيوش الأوروبية، ولكن الحرب تنتهي لتنتهي معها كل المشاريع والآمال، وتنمو معها وانطلاقا منها نفسية شرقية منكسرة تشعر بالذل الحضاري أمام الأوروبيين .

في هذا الإطار بدأت تبرز قضية التخلف قبل بروز قضية التقدم، أو لنقل إن الحديث عن التخلف أخذ القسط الوافر من الاهتمام أكثر مما أخذ الحديث عن التقدم، تم آنذاك وباحتشام طرح قضية التنمية الاقتصادية، لكن سرعان ما خفت الحديث عنها بعد معرفة صعوبة تحقيقها، في ظل بقاء البنيات الاجتماعية والمؤسسات السياسية على ما هي عليه دون تغيير.

في هذا الإطار بالضبط؛ كانت مواقف وأفكار ومنهجية عمل المفتي والمفكر والمصلح المسلم الروسي موسى باكوف.

موسى باكوف هو شخصية تركستانية قازانية معروفة، وهو آخر شيخ الإسلام في روسيا قبل الثورة البلشفية، ترك من ورائه 120 كتابا ومؤلفا في مختلف الموضوعات العلمية والتربوية

والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وما تعلق كذلك بالعلوم الإنسانية، آراؤه تأخذ منحى التجدد والعصرنة ومناقشة المسائل المرتبطة بالحداثة، أيّد البلاشفة قبل وبعد اندلاع الثورة البلشفية وكذلك غداة انتصارهم ولمدة معتبرة من الزمن تخلصا وتفاديا لقمع العائلة القيصرية وحملتها التصفوية ضد الشخصيات المعارضة، ثم ما لبث أن تخلى عن تأييده للبلاشفة فاعتقل وسجن لسنوات، ليقرر بعدها اختيار القاهرة كمنفى له، حيث مات في إحدى دور العجزة هناك.تشكل شخصية باكوفنموذجا ومثالا على الطرح الذي بدأ يبرز ليتجاوز المجال الفكري التقليدي ويسعى لتجديد الرؤى والمفاهيم، وليرسم خط سير يتكيف وينسجم مع ما يشهده العالمان العربي والإسلامي من تغيرات وتحولات في كل البنى، وكان للنورسي موقف من اجتهادات وأفكار هذه الشخصية، وكان مما رفض النورسي منها الكثير، ففي مراجعته وتقييمه لأفكار موسى باكوف يلاحظ النورسي ما يلي:

"أما موسى باكوف فهو يخطىء كثيرا بأفكاره التي تماشي التمدّن والمنحازة شديدا للتجدّد، إذ يحرّف بعض الحقائق الإسلامية بتأويلات خاطئة ويتخذ أشخاصا مردودين في مستوى أعلى من علماء الإسلام المحققين، وقد غالى كثيرا لانحيازه الشديد في بعض المسائل"[4].

التراث الفلسفي اليوناني وكل ما ارتبط بها من اجتهادات المفكرين المسلمين الشرقيين سابقا وفي الوقت الحاضر، وقد أثاره عند مناقشته لأفكار باكوف، اعتبره النورسي لا يتماشى مع طبيعة وفاعلية التعاليم الإسلامية في تشكيل منهج الحياة الإسلامية المطموح إليها في الحاضر أو في المستقبل أو كما وردت في المصادر والنصوص الإسلامية، والحقيقة أن الموقف من هذا التراث الفلسفي نكاد نعثر له على إدانة شبه جماعية من قبل أجيال متواصلة من المفكرين والمصلحين.

وحتى رسائل النور التي يعتبرها النورسي فيض من فيوضات القرآن، و" ضمادات لجراحات أهل الإيمان الناشئة من ورود الشبهات والأوهام"، تقوم في تقديره بدور السد المانع من الانحرافات والانزلاقات من جهة، كما تحول دون امتداد ساحات وميادين التأثير الفكري والفلسفي الغربي: " إن رسائل النور، بل كل رسالة من رسالاتها، وكل موضوع من موضوعاتها، تحل ما لا يحصر من المشكلات"[5] كما عبر عنها أحد الذين كتبوا إلى النورسي.

والنورسي في أحد مؤلفاته يورد نموذجا آخرا مخالفا بالتمام لنموذج موسى باكوف، فهو يورد نص رسالة بعثها إليه الطبيب يوسف مراد، حيث يذكر هذا الطبيب في رسالته: " أن رسائل النور قد بدّلت فكري الديني تبديلا حقيقيا... فأنا الآن لا أنظر إلى الحياة كما ينظر إليها الأطباء الآخرون"[6].

وهذه النصوص والمصادر الإسلامية التي تؤمن بضرورة التفاعل مع الحياة الاجتماعية، والتي تضع الإنسان في مرتبة عليا في هذا العالم وتؤمن بقدراته غير المحدودة كانت بمثابة مبادئ ضرورية عند الطبقة الإصلاحية المفكرة؛ التي كان النورسي جزءا منها.

من هنا تتحدّد مهمة ووظيفة رسائل النور وفق الاتجاه الفكري والتربوي الذي أضفاه على مشروعه الإصلاحي وضبط مراحله وخصوصياته في ضرورة إعادة توظيف الجهد الفاعل للإنسان المعاصر قصد توجيهه نحو استلهام كامل طاقاته وقدراته لبناء نموذج المجتمع المنشود.

بديع الزمان سعيد النورسي يرى: " أن رسائل النور تملك قدرة إصلاح مجتمع فاسد وتملك قابلية إرشاد إنسان القرن العشرين وإنقاذه من الضلالة ومن المادية ومن حياة السفاهة ومن ظلمة الأفكار التي تفضي إليها هذه المادية "[7]. ، فقط يبقى على المسلمين –في نظره– أن يبرهنوا على أنه في مقدورهم الاعتماد على أنفسهم لتنظيم أنفسهم ولمساعدة غيرهم من المسلمين وغير المسلمين ممن وقعوا –كما قال– تحت تأثير الفلسفة المادية ونتائجها، فبهذه الطريقة وحدها يكون في مقدورهم الاستمرار في الحياة، وإعطاء أحسن صورة عن نموذج حضارتهم.

الرغبة في العودة إلى النموذج الأصلي وللشروط المتوخاة للتقدم، تجعل النورسي يؤكد: " أن الناس يستلهمون أمضى سلاحهم من جزالة البيان"[8]. يعني أنه مع التقدم الحاصل بسبب الفاعلية التكنولوجية المعاصرة، ومع الرقي المستمر للإنسان والدخول في عصر الاتصالات الجماعية نتيجة ذلك سيدفع الناس لعرض أفكارهم للآخرين بطريق الإقناع وقوة الحجة والخطابة.

جاءت دعوة النورسي للمشاركة الفعالة في صياغة البديل الفكري والثقافي والسياسي في فترة كانت فيها الشعوب الشرقية قد بدأت جهادها وعملها من أجل تحقيق التحرر من نير الاستعمار

سلميا وبطرق أخرى، وأخذت دعوة التحرر من الاستعمار الأوروبي شكل الدعوة الدينية وبالتالي صارت تتمتع بكثير من القداسة والتقدير الكبير والأولوية في سلم الاهتمامات والتحركات، ولم يكن النورسي نموذجا وحالة خاصة دون سواه في هذا النهج بالذات.

أي عندما التزم بالإسلام في تفكيره والانطلاق من الفهم القرآني في ضبطه وتقديره لأولويات المهام ورسم سلسلة الخطوات الضرورية، فجميع الساسة والمصلحين والمفكرين وضعوا خططهم في مواجهة الاستعمار في صورة تتلاءم مع التقاليد والمسلمات الإسلامية ووفق الثقافة العامة لبلدانهم باعتبار ثراء العادات والتقاليد والأفكار في هذه المجتمعات، فالالتزام بالتعاليم الإسلامية وبنظام العادات والسلوك والآداب التقليدية يقف كرمز لعظمة ومجد الحضارة النموذجية في بقائها واستمرارها، والتي سبقت بوجودها وانتشارها الجغرافي فترة التواجد والسيطرة الاستعمارية، ويفيد هذا الالتزام كذلك كرمز للعزة القومية والتميز عن الآخر.

صاحب هذا التغيير تغيير أساسي في موقف المفكرين والمصلحين والحركيين الشرقيين من الغرب وثقافته وسياساته وفلسفاته، وقد بدأ هذا الاتجاه في العشرينيات خاصة، وذلك عند اشتداد الضغط الاستعماري الأوروبي، وهذا التحوّل جاء بعد تجربة القرن التاسع عشر حيث غلب الطرح الثقافي كأساس لتصور إطار للعودة للذات أكثر سعة وأكثر ضمان للاستمرارية في ظل اختلال موازين القوى، ثم تحوّلت وتطورت هذه التجربة لتحمل طابع التحدي السياسي من خلال التكتل والتحالف والتنظيم الحركي بسبب مباشر ناتج عن خطة التنظيمات ومختلف إفرازاتها و التي كان قد انتهجها عبد الحميد الثاني لتدارك حالة الضعف وبوادر الأزمة في المجتمع العثماني.

في فترة خطة التنظيمات هذه؛ والتي جاءت في صورة إصلاحات سياسية وإدارية؛ أقبل الشرقيون من مستويات مختلفة على النقل والأخذ عن تجارب وثقافات وعلوم الغرب دون توجس كبير ودون وضع أية اعتبارات للريبة والتشكك، معتبرين هذا الأخذ مما تمليه الظروف والحاجيات كعلاج فاعل للأزمة المتحركة والممتدة سنة بعد أخرى، لذلك قاموا تحت ضغط الحاجة الأساس بنقل كل ما أنجزه الغرب من إنجازات حضارية وعلمية وعمرانية.

ثم جاءت بعدها لحظة التفكير في كيفية العودة إلى الذات، ومعها وبسببها عاد المصلحون والسياسيون والمفكرون الشرقيون إلى التفكير في كيفيات إعادة استثمار مصادر حضارتهم والانتفاع من رصيدها ومآثرها وقيمها، ثم هاهم بعد ذلك يحاولون تطويع ما نقلوا عن الغرب ويسعون لمواءمته مع أصولهم ومصادر حضارتهم، وهنا بالضبط كذلك؛ سنشهد بروز الاتجاهات والنظريات المختلفة في تعاملها مع الرصيد الفكري والعلمي والفلسفي الأوروبي وتظهر بالخصوص وعلى الإطلاق مناهج المقاربة ومناهج المقارنة.

في هذا الإطار، وفي ظل هذا التصادم بين مختلف الاتجاهات بخصوص تحديد كيفية التعامل مع الرصيد الأوروبي في عمومه وفي مختلف مجالاته؛ يعتبر النورسي أن كل مسعى حضاري تجديدي خارج المجالات الدينية والمعرفية والثقافية الذي تؤطرها وتضبطها النصوص والتعاليم الإسلامية المجمع عليها من قبل جمهور علماء الإسلام، هو في نظره مسعى يصب في تبني خط ومنهج الفلسفة المادية التي يجب إحداث القطيعة معها وبناء "سد منيع" لردها.

ونجد في كثير من المواضع في مؤلفاته شرحا من لدنه لطبيعة ووظيفة هذا "السد المنيع "، ففي وصفه لطبيعة التراجع الظاهر في النشاط الفاعل للمؤسسات العلمية والثقافية في الشرق وفي تقييمه كذلك للدور الإنساني علميا وأخلاقيا وحضاريا، يضبط سياقها على النحو التالي:

"أما الآن فلتشتت الأفكار والقلوب، وانقسام العناية والهمة، وتحكّم السياسة والفلسفة في الأذهان، فإن جهد من صار يروم تحصيل البحث والتطوّر في العلوم يتباعد استعداده بدرجة تبحّره في الفنون الحاضرة ويتقاسى عن قبول الاجتهاد بدرجة تغلغله في العلوم الأرضية "[9].

اصطباغ فكر حركة التحرر القومي بالدين الإسلامي حتى في فترة فكر الحرية، فرضته عدة معطيات وعدة متغيرات متنوعة منها: بنية ثقافة الجيل، قيمة الفكر الإسلامي في تلك المرحلة، ضعف تأثير الأفكار والنظريات الأجنبية، ربط الحركة الاستعمارية بالحروب الصليبية، كون المؤسسات التربوية الإسلامية كانت فاعلة وذات دور في الحياة الاجتماعي والسياسية، طبيعة مستوى وتكوين القوى والقيادات القائدة للعمل الحركي والتحرري والنضال السياسي، حيث أن

أغلب هذه القوى والقيادات، تنتمي إلى فئات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة التي تميل بشدة إلى النزعات الدينية الإسلامية لنشوئها وتشبعها بمعارف ومناهج هذه المؤسسات.

فمدرسة حسن حبنكة الميداني–على سبيل المثال– لعبت أدوارا كبيرة في هذا الصعيد، على مستوى المنطقة الشرق أوسطية برمتها وصولا إلى تركيا، حيث يؤكد شيوخها ومفكّروها وعلماؤها على أن للنزعات المادية التي أصبحت تسيطر على الحياة في الغرب الأوروبي بكامله وفي جزء كبير من الشرق الإسلامي آثارا سلبية في مجالات كثيرة[10].

وعليه رأوا أنه من الضروري تجاوزها لتفسح مكانها للقيم الإسلامية بالخصوص، فتمسك الأوروبيين بالمسيحية في نظر النورسي ما يزيدهم إلا أزمة ودخولا في حلقة الصراع والعدوانية والفتنة لذلك فالصحوة النهضوية تتجلى في أكمل صورها من خلال التمسك بالدين، وهذه القناعة لا ينفرد بها النورسي لوحده، بل تشيع شيوعا قويا لدى أغلب مصلحي الشرق بالخصوص.

وأيا كان الأمر؛ فإن الإسلام الذي يبشر ضمن مختلف مصادره ونصوصه بنموذج مجتمع وإطار محدد من العلاقات الإنسانية خارجة عن مجال الزمان والمكان، تركت الميدان في متناول كل من يقوم بقراءة شخصية لهذه المصادر، ولذلك كثرت الاتجاهات والرؤى في هذه المجالات بالضبط [11]، حتى أتيح لبروز فرق تجتهد أصلا من النص القرآني ولا تحظى بأي إجماع من جمهور العلماء –على حد تعبير النورسي–، لأننا ببساطة يمكن أن نفتح بابا لنطرح ما يلزم من الأسئلة لنعرف: من هم جمهور العلماء ؟ وكيف حازوا على صفة الجمهور؟ ولماذا يعتبرونهم المرجع والفصل في كل المسائل؟ من هي الجهة التي تنصّبهم في مصف المرجعية؟

يصف الإمام الشوكاني بعض صفاتهم قائلا: " أن تكون منصفا لا متعصبا في شيء من هذه الشريعة فإنها وديعة الله عندك وأمانته لديك فلا تخنها وتمحق بركتها بالتعصب لعالم من علماء السوء بأن تجعل ما يصدر عنه من الرأي ويروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد، فإنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعا لا متشرعا، ومكلفا لا مكلفا ومتعبدا لا متعبدا "[12].

تتلخص فلسفة النورسي الاجتماعية في البحث عن هوية وصورة الإنسان المتكامل وهي فلسفة شغلت أجيالا كثيرة من الفقهاء والمفكرين وحتى الصوفية، فالإنسان الكامل هو في حد ذاته مشروع ثري وممتد في تاريخ الفلسفة الاجتماعية عند المسلمين.

3. مقومات إنسان الحضارة في فكر النورسي:

سعى النورسي عبر مؤلفاته ليوضح للقارئ طريق الوصول إلى هذا المستوى الرفيع من الإنسانية (نموذج الإنسان الكامل)، وكان يرى بأن الإنسانية في مقدورها أن توجد مجتمعا نموذجيا يتكون في مجموعه من ذوات أو شخصيات كاملة متكونة وفاعلة وأخلاقها ذات بعد مدني إيجابي، وفي تحديده لطبيعة الطريق المؤدي إلى تطور الشخصية ميّز النورسي بين ثلاث مراتب من التطور:

1.3. أولها: التمسك بالقيم الإسلامية السليمة من مصادرها الأساسية

يقول النورسي في هذا السياق: " أمام كل إنسان –لا سيما المسلم– مسألة مهمة وحادثة خطيرة هي أعظم من الصراع الدائر بين الدول الكبرى لأجل السيطرة على الكرة الأرضية، تلك المسألة هي من الأهمية والخطورة ما لوا امتلك الإنسان العاقل قوة الألمان والإنجليز وثروتهما معا، لما تردد في أن يضعها كلها لأجل كسب تلك القضية المبتغاة "[13]. هذه القضية التي يتحدث عنها هنا مرتبطة بضرورة التمسك بالقيم الإسلامية السليمة والالتزام بها فكرا ومنهجا ومشروعا وغاية، ويلاحظ عليه تخصيصه أجزاء كبيرة من رسائله لشرحها والدعوة إلى تبنيها وضبطه أية خطة إصلاحية تغييرية على أساسها.

2.3. ثانيها: ضبط النفس وتهذيبها وهو أعلى مراتب النضج بالنسبة للشخصية.

يقول في ذلك: " إن ثباتكم وصلابتكم تبطل جميع خطط الماسونيين وتجعلها بائرة عميقة ...إن أولئك الزنادقة قد قاسوا رسائل النور وطلابها بالطرق الصوفية ولا سيما بالطريقة النقشبندية، فقد شنوا هجومهم علينا بالخطط نفسها أملا بأن يفرقونا ويهونوا من شأننا "[14].

3.3. ثالثها: الالتزام بالنظام وبالآداب وبالقوانين إذا كانت تتجانس مع ما سبق.

يقول في ذلك:" ويلزم عدم الخوض في مسائل النزاع ...حيث يسبب هذا اتخاذ العلماء وأهل السياسة تجاه رسائل النور موقف المجابهة والتعدي عليها، فالحذر هو الألزم... وإن رسائل النور ليست دائرة واحدة بل لها طبقات كالدوائر المتداخلة فهناك طبقة الأركان والمالكين والخواص والناشرين والطلاب والموالين...فمن لم يكن من طبقة الأركان لا يطرد خارج الدائرة بشرط عدم موالاته لتيار يخالف رسائل النور... "[15].

النورسي على غرار كثير من المفكرين الشرقيين تناول ظاهرة نيابة الله على الأرض وهي قضية بارزة في فلسفته الاجتماعية، ونجدها في خلفية كثير من تحليلاته ومقارناته للنماذج المدروسة.

يعتبر أن قضية "نيابة الله في الأرض" هي أعلى مراتب الكمال بالنسبة للذات الإنسانية المؤمنة، وقمة صفات الإنسان الكامل، لأنها تعكس ثقل مسؤولية كبيرة، وتضع للإنسان معالم تصور عقدي وتعبدي يرتبط بأحكام ومعايير وقيم الإسلام، كما أنها تحمل خصوصية النموذج الإنساني والمجتمعي.

بالتالي فمعنى تحقيق نيابة الله على الأرض هو أن يكون نموذج الإنسان في مستوى نموذج المجتمع التي يستأهل ويستوعب ويتكيف مع هذه النيابة، ليتمكن من الإيفاء بكل متطلباتها ومسائلها وشروطها وتحدياتها كذلك، إذ يرى أن تحقيق النيابة الكاملة مع ذلك هي لازمة وضرورية، وإلا فإن انعدامها يعني انعدام النظام العادل، يرى النورسي أن الأسس المتبعة في المدنية الأوربية: "هي أسس ظالمة لا تتبع العدل ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدل، فالحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأنى له أن يبلغ العدل "[16]. وقوّة العدل (النورسي يشبه ابن تيمية في ربطه قضية نيابة الله في الأرض بقضية العدل).

يقول في هذا الصدد: "...وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم يشترك في إثم ، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الدين من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم، وإن لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة "[17]. والتمكين

لغلبة الفساد على الصلاح، إذ يعتبر في هذا السياق: " أن أساس وخميرة الشرور والرذائل والخطايا تسبب كلها العدم والهدم، وما يبدو من وجودها الظاهر يختفي تحته الإفساد والتعطل والعدم[18]".

أما كيفية وطريقة الوصول إلى هذه الحالة النموذجية التي يتكامل فيها العدل مع الإنسان الكامل مع نيابة الله التامة على الأرض، تعني بالنسبة له تحقيق هدف الإنسانية الأعظم، الذي لن يكون إلا حسب سياقات وظروف وقواعد محددة، وهو الانتظام وفق نواميس الفطرة التي لا تتعارض مع طابع "العبودية لله " إذ العبودية عنده شيء ضروري لتحقيق النيابة.

النورسي يعتبر أن هذه النواميس إنما الغاية منها جعل الإنسان أكثر انتظاما وأقرب للتكيف مع الحياة والانسجام وفق ما يقتضيهاالالتزام الفطري والفكري والاجتماعي لهذا الإنسان، باعتبار خصوصيته من جهة وخصوصية النظام الكوني الذي يستوعب كل القوى البشرية على اختلافها وتنوعها، ويرى في هذه النيابة الإنسانية بأنها الحالة التي تمتزج فيها أعلى مراتب المعرفة والإدراك بأعظم وأقوى الدوافع البشرية.

4. المجتمع النموذجي المتحضر عند النورسي:

كان النورسي مقتنعا بأن الإنسان في مقدوره أن يحقق ذاته من خلال هذا الالتزام وهذا الانتظام ويتفادى كما يقول العدم الوجداني والديني (حالة الفراغ) ويطوّر قدراته بواسطة التفاعل مع الآخرين فقط ومن خلالهم، لذلك وشعورا منه بأن المهمة تحتاج إلى كل الجهد الإنساني الفاعل فإنه وجّه النداء لمن رأى فيهم القدرة والأهلية على معالجة أسباب ومعطيات ودوافع هذا الفراغ.

يقول في هذا الصدد:" فليصغ إلى هذا علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه، وليأتوا وليبينوا بماذا سيملؤون هذا الفراغ؟ وبماذا سيداوون ويضمدون هذه الجروح الغائرة العميقة "[19].

الوضعية الموجودة على أرض الواقع والتي عالجها النورسي رأى فيها . وهو متأسف . أن الفراغ الحضاري النموذجي هو السائد وسيادته تبقي على الظلم والاستبداد والتعسف قائما بين البشر، وهذا الفراغ هو في نظره ناجم عن فساد المدنية الغربية المهيمنة والمسيطرة بطابعها التجاري

والصناعي والتكنولوجي، والتي صارت لا تصلح كنموذج حضاري تسعد به كل الإنسانية، انطلاقا من حالة عدم الصلاح هذه، يحدد وسيلة وإطار وأهداف وضع بديله الحضاري:

"إنني أتحدى أوروبا كلها بما في ذلك ملاحدتهم، لقد اقتحمت قلاعهم الحصينة التي يسمونها العلوم الطبيعية أو العلوم الحديثة، وذلك بفضل ما نشرت من الحقائق والبراهين الدامغة، ولو اجتمعت أوروبا بأسرها بما في ذلك ملاحدتهم، فلن تستطيع أن تحول دون مسألة واحدة من مسائل مهنتي "[20].

من جهة أخرى يتأسف لتهاون الشرقيين بما في أيديهم من رصيد فكري متراكم، فعوض أن يعطوا هذا النموذج لغيرهم لتستأنس به الإنسانية كلها، انشغلوا بما لا يجب لصاحب حضارة ولمن هو مكلف بتحمل مسؤولية نيابة الله على الأرض أن ينشغل به، الإنسان المعاصر –الشرقي والغربي معا– افتقد المعالم وحركة الاتجاه الحضاري فوقع في المأزق، النورسي يصف طبيعة هذا المأزق وفق الرؤية التالية:" لقد غرق فكره في مستنقع الفلسفة المادية، وسرح عقله في أحداث السياسة، وحار قلبه أمام متطلبات الحياة المعاشية، وابتعدت استعداداته وقابلياته عن الاجتهاد فابتعد بذلك استعداده عن القدرة"[21].

يرى أيضا أنه يجب أن تتوفر في المجتمع شروطا معينة وأيضا نموذجية، وهي أن تكون لهذا المجتمع قاعدة فكرية وعقدية ودينية خالصة –أي غير قابلة للتأويل– مستوحاة من مبدأ التوحيد في الإسلام، فالأمة التي تنتمي لهذا المجتمع هي الأمة التي تتوفر على صفات "أهل التوحيد".وأهل التوحيد هم من يستطيعون التوفر على كفاءة وأهلية تحقيق نيابة الله على الأرض، وأن يكون للمجتمع قائدا ورمزا تلتف حوله جموع الأمة وخاصة القوى الفاعلة فيها (النبي مُحَّد صلى الله عليه وسلم نموذجا تاريخيا)، وهو في الوقت الحاضر شخصية المجدّد أو رجل عصر النكبة، الذي يصلح فساد الأمة ويعالج فساد الزمان بما يجب من الوسائل والأفكار وهو من يرى النورسي وجوده ضرورة فطرية تقتضيها طبيعة المجتمع في تحولاته وتغيراته (النورسي في البداية كان يأمل من غير جزم أن يكون مجددا مثل من سبقوه من المجددين). فقد أشار أنه من خلال قراءاته لمؤلفات مجدد الألف الثاني السيد أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي، قرأ لهذا الأخير بأنه سيأتي أحد من علماء

الكلام ليتبوأ صفة المجدّد، فكان رد النورسي بعد قراءته للكتاب "ياليتني أنا ذلك الشخص، بل ربما هو أنا " وهذا قبل أن يصير فيما بعد على حد تعبيره "رجل عصر النكبة والهلاك"، وهو أعظم مقاما من المجدد[22]. وأن يكون أيضا له كتاب مقدّس وهو كتاب الله المنزل على آخر الأنبياء، ففيه كل ما تحتاج إليه الأمة من العقيدة والأصول والمفاهيم، وفيه معالم منهج الحياة، وهو القرآن، وأن يكون له كذلك إلى كل ما سبق، كل ما يعكس صورة ونموذج هيئة اجتماعية منظمة وفاعلة متجسدة في المجتمع النموذج الذي يصير في نظره نموذجا ليس للمسلمين فقط بل وللإنسانية جميعا، وهذا كله يقتضي أن تكون له تقاليد وأعراف ونظم ومعايير وسلم قيم تحفظ له الاستقراروالانتظام والتناسق، ثم إن المجتمع النموذجي البديل في مفهوم النورسي يجب أن يتخذ العلم منهجا له فمن خلاله وبواسطته يستطيع التأسيس لحضارة العلم .

يرى النورسي أن المجتمع النموذجي الذي تحكمه مبادئ الإسلام يوفر الظروف المناسبة لكي يحقق الإنسان الحضاري النموذجي ذاته ويطوّرها، فيتسم هذا المجتمع في الدرجة الأولى بالحرية – الفردية والجماعية–، فلا يوجد به أي شكل من أشكال الاستغلال اللاإنساني أو التسخير في الشؤون الاقتصادية أو السياسية وفق أغراض ومصالح غير نزيهة، كمالا توجد به قيود ولا معوقات تحد من قدرات الإنسان الإبداعية الابتكارية التي تحرمه من التطور الفكري بالموازاة مع التطور المجتمعي، فالقدرات الإنسانية لا تنمو ولا تتحقق إلا في ظروف وأوضاع تتميز بالحرية وعمق علاقات الاتصال.

النورسي يؤمن بفكرة أن المبادئ الأساسية للمجتمع النموذجي الإسلامي تتمثل في الفضيلة والميزة التي تفردها عن غيرها من المبادئ وهي: طهارة وصفاء التعاليم الإسلامية التي تتجسد في فكرة الإخاء والمحبة والمساواة لكل البشر وخاصة بين "أهل التوحيد" كما يذكر ذلك بنفسه، ولكي يعطينا صورة عن الحالة التي ستحل إذا انتفت الأخوة والمحبةفإنه ينطلق بها من الحكمة مرورا بالحق والقوة ليصل بنا إلى مساوئ الأنانية الضارة، يقول: "إذا لم تمتزج دساتير الحكمة مع نواميس الحكومة ولم تمتزج قوانين الحق مع روابط القوة فلن تكون مثمرة بين جمهور العوام وإذا لم تكن للفكر غاية ومثل عليا، تحولت الأذهان إلى "أنا" الأفراد ودارت حولها"[23].

هذه الفكرة التي ترفض كل أشكال الظلم الاجتماعي والقهر والتسلط والإيذاء ،هي فكرة ذات جذور فكرية إسلامية ، حيث يلاحظ ابن قيم الجوزية في أحد مؤلفاته أن أجيال العلماء المسلمين اتفقت كلها على:"أن العلم والعدل هما أصل كل خير، وأن الظلم والجهل هما أصل كل شر، والله تعالى أرسل رسوله ولأمره أن يعدل بين الطوائف ولا يتبع هوى أحد منهم"[24]. إضافة إلى ذلك فهو طوال حياته كان يؤكّد على أهمية وجود العناصر والشروط التي تحقق العدالة الاجتماعية بين الناس، وعلى ضرورة تحقيق المحبة والأخوة ولكنه بحث عن أصول لها وروافد وجذور في العصر الأول من ظهور الإسلام.يقول بديع الزمان سعيد النورسي: " لقد كان الخلفاء الراشدون خلفاء ورؤساء جمهورية في الوقت نفسه، فأبي بكر الصديق كان دون شك بمثابة رئيس جمهورية، ولكن ليس تحت عنوان أو شكل فارغ، بل كل منهم رئيس جمهورية يحمل معنى العدالة الحقيقية والحرية الشرعية"[25].ويقول محدّدا الأبعاد الاجتماعية والسياسية لهذه القيم: "إن الأصابع التي تحارب رسائل النور من خلف الأستار هي الأصابع الأجنبية التي تحاول تحطيم وكسر الود والمحبة والأخوة التي يكنها العالم الإسلامي نحو هذه الأمة، هذه المحبة والأخوة التي تعد أكبر قوة لهذه الأمة "[26].

خاتمة:

لم ينفك فكر التحضر عند بديع الزمان النورسي عن التأمل في حالة التخلف التي تطبع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية في العالم الإسلامي، فاتجه إلى العامل الديني الذي رآه فاعلا أساسيا في تلك الجناية التي اقترفها الفكر الأوروبي على فكر عالم الشرق. ولعل أهم النتائج التي يمكن رصدها من خلال دراستنا لفعل التحضر عند النورسي هي:

- يفرق النورسي بين الخصوصية الفكرية والدينية والثقافية للتحضر؛ حيث يحاول أن يغذي مفهوم المدنية بالبعد الإنساني باجتماع الرقي الأخلاقي والحضارة كما يعتبر النورسي الارتقاء الأخلاقي عاملا حاسما في التحضر ناجم عن رؤيته لحالة التمزق الاجتماعي وتسليع الإنسان الحاصل في أوروبا.

– رؤية بديع الزمان النورسي للفكر الفلسفي المادي هي رؤية متسمة بالإلغاء والتجاوز بسبب استبعاد الفكر المادي للعناصر الروحية في الإسلام؛ ما سبب نوعا من الانزواء للفكر الإسلامي وتحويل الممارسة الدينية إلى ممارسة شبه منعزلة عن الحياة.

– يرى النورسي أن صياغة البدائل الفكرية والثقافية والسياسية تأخذ شكل الدعوة الدينية التي تتجلى في الانطلاق من الفهم القرآني لمعاني التحضر ومعاني التحرر من الاستعمار والفكر الاستعماري الذي يقهر الإنسان ويحد من قدراته وآماله وتطلعاته.

– كل سعي حضاري منفصل عن التأصيل الديني والتأطير المعرفي والثقافي المؤسس على تعاليم الإسلام لا يمكن إلا اعتباره — في رؤية النورسي– تبنيا لخط المادية الواجب استبعادها.

– قوام الشخصية الحضارية الكاملة عند النورسي يتجلى في التمسك بالقيم الإسلامية من منابعها المركزية وتهذيب النفس وضبطها، وهي الشخصية التي تصنع المجتمع النموذجي الفاضل.

– يرى النورسي أن تحقيق نيابة الله في الأرض وإصلاحها تتحقق للمجتمع الذي يقف على القاعة الفكرية والقاعدة العقدية، والعامل الفاعل في تحقيق ذلك هو التوحيد الإسلامي بما يضمنه من توحيد الهدف والغاية والمصير، إضافة إلى اجتماع الأمة على القيادة الروحية التي تتجسد في نبوة مُحَمَّد ﷺ وكل قائد مخلص عامل بتلك الخاصية التوحيدية.

– يربط النورسي الفكرة الدينية والإيمان بالحرية التي يراها شرطا لتحقيق الإبداع والابتكار، فالمجتمع المتحضر هو مجتمع متحرر؛ من القيود والمعوقات، وهو مجتمع متماسك الوشائج والصلات.

المصادر والمراجع:

1. بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المكتوبات، المجلد الثاني، ترجمة وتعليق إحسان قاسم الصالحي، دار النسل للطباعة، إستانبول،*1992*.

2. بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الكلمات، ترجمة وتعليق إحسان قاسم الصالحي، ط6، دار سوزلر للنشر، القاهرة، 2011.

3. بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق، مصدر سابق، ص 33.

4. بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الشعاعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، إستانبول، دار سوزلر للنشر 1993.

5. بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، إستانبول، دار سوزلر للنشر، 1994.

6. عبد الماجد الكيلاني، الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي، الرياض، الدار السّعودية للنشر، 1983.

7. السيد جبر، حول ماضي المسلمين وحاضرهم، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1999.

8. الإمام الشوكاني، طلب العلم وطبقات المتعلمين، تحقيق مُحَّد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986.

9. أحمد بن تيمية،الإستقامة، تحقيق مُحَّد رشاد سالم، بيروت، دار الكتب العلمية، دت.

10. عمر بن بوذينة، صورة التقدم في الفكر الإسلامي الحديث، مجلة أفكار، المجلد 23، ع2، السنة2021.

الهوامش:

[1]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور، المكتوبات، المجلد الثاني، ترجمة وتعليق إحسان قاسم الصالحي، دار النسل للطباعة، إستانبول،1992، ص 64.

[2]- عمر بن بوذينة، صورة التقدم في الفكر الإسلامي الحديث، مجلة أفكار، المجلد 23، ع2، السنة2021، ص 507.

[3]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الكلمات، ترجمة وتعليق: إحسان قاسم الصالحي، ط6، دار سوزلر للنشر، القاهرة، 2011، ص 554.

[4]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المكتوبات، مصدر سابق، ص 445.

[5]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق، مصدر سابق، ص 31.

[6]- المصدر نفسه، ص 36.

[7]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الشعاعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، إستانبول، دار سوزلر للنشر 1993، ص 588.

[8]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الكلمات، مصدر سابق، ص293.

[9]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، إستانبول، دار سوزلر للنشر، 1994، ص ص 183-182.

[10]- عبد الماجد الكيلاني، الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي، الرياض، الدار السّعودية للنشر، 1983، ص 49.

[11]- السيد جبر، حول ماضي المسلمين وحاضرهم، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1999، ص 21.

[12]- الإمام الشوكاني، طلب العلم وطبقات المتعلمين، تحقيق مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 07.

[13]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الشعاعات، مصدر سابق، ص 253.

[14]- المصدر نفسه، ص 358.

[15]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق، مصدر سابق، ص ص 204-205.

[16]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المكتوبات، ص 68.

[17]- أحمد بن تيمية،الاستقامة، تحقيق مُحَمَّد رشاد سالم، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ، ص ص 247-248.

[18]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الشعاعات، مصدر سابق، ص 320.

[19]- المصدر نفسه، ص 230.

[20]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المكتوبات، مصدر سابق، ص 90.

[21]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الكلمات، مصدر سابق، ص 564.

[22]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الشعاعات، مصدر سابق، ص 211.

[23]- بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المكتوبات، مصدر سابق، ص 604.

[24]- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الجزء 03، تحقيق مُحَّد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، بدون سنة ص ص 533-532.

[25] بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الشعاعات، ص ص 425-426.

[26]- المصدر نفسه، ص **333**.